من زوايا التاريخ

غزو روسيا

تفشل فيه ثلاث دول في ثلاثة عصور

— ٢ —

لادوار مرقص
من اعضاء المجمع العلمي

حريق موسكو

علينا الآن ان ننتقل الى الغزوة الفرنسية وفشلها في روسيا تحت قيادة الامبراطور نابليون بونابرت الأول . والقيصر الروسي يومئذ هو الامبراطور اسكندر الاول من سلالة بطرس الأكبر الآنف ذكره . وقد اخترنا لذلك فصلاً عنوانه « حريق موسكو » مدبجاً بقلم شاهد عيان زيد به الكونت سيجور Ségur وهو جنرال من قواد نابليون وأحد المقربين اليه والحائزين ثقته المطلقين تماماً على دخائل اموره وأحوال جيشه وغزواته . وهذا الكاتب القائد كان أيضاً عضواً من أعضاء الاكاديمية الفرنسية في باريس وهذا ترجمة ما قاله :

« كان رجلان من ضباطنا الفرنسيين قد نزلا بحي بناء من ابنية الكرمليين قصر القياصرة وبانا هناك مع من باتوا في القصر من رفاقهما . وكانا من موضعهما ذاك يشرفان على الجانب الغربي والجانب الشمالي من تلك العاصمة العظيمة موسكو . وعند منتصف الليل انتبها على انوار وهاجة فنهضا ومدّا ابصارهما واذا بهما يشهدان النيران محتدمة على نطاق واسع في الجهتين الشمالية والغربية وقد تألقت انوارها وانتشرت طولاً وعرضاً وارتفعت الى الجو واخذ ضرامها يفعل فعله الهائل في الابنية التي تقتحمها فتهدم السقوف والجدران وتتطاير الغطايا الكثيرة في كل جهة وقد وصلت منها بقية الى حيث كان الضابطان فارتاعا لهذا المنظر وخفق قلباهما لاسيما وقد رأيا الريح الشمالية تسوق ذلك الحريق الهائل باتجاه قصر الكرملين نفسه

وقد نزل في القصر نخبة الجيش الفرنسي ومعهم الامبراطور نابليون كما ان قسماً آخر من الجيش العامل وفرق عمال الجيش الفرنسي ووظفيه نزلوا بجوار القصر في كثير من

القصور والفنادق والدور وكلهم يهدمهم الحريق الزاحف نحوهم وهم مستغرقون في يوم عميق على اثر ما قاسوه من المشاق والمتاعب في يومهم السابق والايام التي تقدمت

***

وبعد ما شاهد الضابطان ذلك المشهد مدة ساعة او اكثر وتأملاه وفكرا في شأنه ظناه حادثاً بسيطاً نجم عرضاً ولم يتداركه اولو الامر بسرعة اهمالاً منهم واستخفافاً به وقال أحد الضابطين في نفسه . « مالي ولما أراه فأنا وجندي بمعزل عن هذه النار فهي لا تهددنا وليتولَّ غيرنا امرها » . قال ذلك وعاد الى فراشه . ولا شك ان ما ناجى به نفسه هو ضرب من حب الذات وضعف الحية مما ينتاب قلوب البشر على اثر ما يلقونهُ من متاعب وشدائد . ولا شك ان شدائد الجيش الفرنسي وضباطه كانت جمة يخطئها العد والاحصاء . فالضابط الفرنسي كان معذوراً في نجواه وتهاونه . وقد أراد هو ورفيقه ثلاث مرار الرجوع الى مهجعهما وفي المرار الثلاث كان بريق النار وازيزها وتطاير الشرر والشظايا ينهضهما من مضجعهما الى النوافذ والشرفات والحريق يتسع نطاقه بسرعة ويشتد شواظه ويدنو زحفه من قصر الكرملين . فلما لاحظ الضابطان ذلك ازداد خوفهما وتغيرت ظنونهما وأحسا أن الامر اعظم وأهم مما حسبا وقدَّرا فقالا هل يا ترى أقدم اعداؤنا الروس على احراق عاصمتهم هذه بأمل ان يطوقونا ونحن فيها ويقضون علينا وعلى امبراطورنا . انها لتضحية عظيمة لم يسمع التاريخ بمثلها اذا صح ظننا بشأنها ولكن النتيجة المتوخاة من القضاء على جيش فاز مظفر تتطلب تضحية عظيمة تكون على مستواه ثم بزغ فجر ذلك اليوم وكان قد أحس بالحريق سائر الضباط الذين باتوا في القصر فبهتوا ولجأوا الى ساحات القصر وردهاته الواسعة والذعر يدب في قلوبهم شيئاً فشيئاً وكان في القصر على غير علم منا مستودع كبير للبارود وتحت شرفاته صناديق وبراميل بارود للجيش الفرنسي والى قربها بطاريات من المدافع الفرنسية . وقد اجتهد القائد موروتيه Mortier ومعه غيره من الرؤساء والموظفين ورجالهم في مكافحة الحريق ووضع حدٍّ لهُ حتى تصببوا عرقاً من التعب وفرغت من أيديهم كل وسيلة ومن عقولهم كل حيلة . ولم يفلحوا في مسعاهم فتخلوا عن مهمتهم تلك وأتوا الى جوار قصر الكرملين واستلقوا على ظهورهم ملتمسين لانفسهم شيئاً من الراحة واليأس أقرب الى قلوبهم من الامل وكذلك لزموا الصمت واجمين

« وكان كثيرون لا يزالون يظنون ظنًّا راجحاً أن ذلك الحريق نجم في أول أمره عن غير عمد على يد جنود فرنسيين أشعلوا النار وذبحوا الذبائح وأقاموا المراقص في ذلك الليل .

ابتهاجاً بما نالوه من نجاح عسكري توهموه ظفراً حاسماً نهائياً بدخولهم موسكو فأصابت النار شيئاً أمامها التهمته وساعدتها الريح العاصفة التي كانت تهب فحصل الحريق واشتد وامتد الى أن أصبح خطراً لا يطاق ولا يرجى ترقيه . هذا الذي ظنته جماعة منا وكانت جماعة ثانية تخالفها فيه وجماعة ثالثة تتردد بين الظنين . وهو غموض مؤلم لا يخرجنا منه إلا الخبر الصريح الصادق فأخذنا نستطلع الأخبار ولم تلبث أن وردت علينا صريحة صحيحة إذ جاءنا افراد من رجالنا من جهات متعددة وكلهم مجمع الكلمة على ان الروس هم الذين تعمدوا حرق عاصمتهم تكايةً بنا وأملاً بالتغلب علينا ومحو أثرنا . وكان بدء الحريق على ما روى شاهدو عيان من الجند الفرنسي ان كتلة من النار هبطت من الجو على قصر أحسد أمراء الروس فتناوله الحريق وكانت تلك الكتلة الهابطة هي العلامة المتفق عليها بين رجال الحريق فبادروا الى انفاذ مهمتهم بجرأة وضراوة غريبتين وقد استخدموا في عملهم وسائل مختلفة من أسهم عليها خرق مغموسة بالقطران ومن كتل أخرى ومن قنابل متفجرة الى غير ذلك من أدوات الاحراق وقد اشتركت نساء من الطبقة السفلى في هذا الحريق . وأما رجال الحريق فمعظمهم سجناء وأئمة أطلقت الحكومة الروسية سراحهم وأمرتهم بحرق العاصمة تحت مراقبة رجال الشرطة ورجال الدرك. وأول بناء التهمه الحريق قصر ذلك الأمير ثم دار البورصة ثم العشرات والمئات من الأبنية الكبيرة والصغيرة وكان مشعلو النيران يبدون عناداً غير اعتيادي وافتخاراً عظيماً بانجاز مهمتهم وهم لا يبالون بالجند الفرنسي الذي يقاومهم وقد أهلك منهم جماعة فلم يثبط هلاكهم همة واحد من الباقين . وزبدة ما يقال في عملهم ذاك ان التفكير فيه لا ينشأ إلا عن فرط الأنانية والمحبة الوطنية ولكن انفاذ هذا العمل لا يستطيعه إلا أهل الشر والفساد .

***

«وهكذا جرى في حريق موسكو . وكان حريقها يهددنا بعواقبه في حاضرنا ومستقبلنا ويقضي على ثمار انتصاراتنا في روسيا وغير روسيا من ممالك الشرق والغرب . وقد بدأ حريق موسكو ليل ١٤ ايلول (سبتمبر) من سنة ١٨١٢

« وكنا لا نزال في احدى ساعات الصباح والامبراطور نابليون مستغرق في نومه وليس من رجل في خواص رجاله يتجاسر على ايقاظه ومجابهته بخبر ذلك الحادث الفظيع . واذا به يستيقظ من تلقاء نفسه على وهج النورين نور النهار ونور الحريق فما كاد يرتدي ثيابه حتى ظهرت أمارات الغضب على وجهه وأمر باطفاء النار كأنه يصدر امراً عادياً سهل التنفيذ

فوقف رجاله أمامه صامتين منكسين رؤوسهم . ولما علم الطرف من حقيقة الامر تقدم من احدى الشرفات يمد بصره فصعق لما رآه من هول الحريق وسرعة دبيبه وخيبة الجند الفرنسي في مكافحته ومكافحة القائمين به . ومع ان بين مواضع الحريق وبين قصر الكرملين أرضاً براحاً واسعة ونهر موسكوفا وجسره وأرصفته وغير ذلك من الأبنية كان وهج النار قد وصل الى بلوره وزجاجه فجعلها حامية لا تكاد تمس وكانت شظايا الحريق تتطاير بسرعة وكميات عظيمة من العلنوف والشرفات والابراب الى سطوح القصر وسقوفه ومخادعه ودهاليزه وردهاته وخدم الامبراطور في القصر وحرسه يجهدون في ازالتها وتنظيف مواقعها وهم يعجزون عن ذلك لأن المتجدد منها كل لحظة كان يفوق ما يكنسونه ويزيلونه . فاعترت الامبراطور نابليون نوبة عصبية شديدة وجعل يرغي ويزبد ويقوم ويقعد ويركض من مكان الى مكان ويصدر أمراً ثم يلغيه ثم يعود الى الشرفة فيتطلع ويرى الحريق يزداد شدة واتساعاً ومن نظر الى الامبراطور في تلك الساعة كان يظن ان لهباً من الحريق مس ثيابه وجسمه بدليل ما يشاهد من كثرة حركاته واضطرابه . والرجل معذور في هذا الجزع وهذا الغضب فقد كان يبني صرحاً من الآمال على غزوه روسيا ودخوله عاصمتها منتصراً فاذا بتلك الآمال من أولها الى آخرها شبح وهمي أو طيف خيال يتوارى تماماً في ثنايا لهب الحريق وسحائب دخانه المتلبدة وكان قد عرض شروط الصلح على مغلوبيه الروس ورجا أن يرد عليه جوابهم بالقبول أو بتعديل خفيف لتلك الشروط فاذا بهم يرسلون اليه حريقاً لا يدع ولا يذر عوض ذلك الجواب وطول الأخذ والرد في الخطاب . وكلما رمى ببصره الى الأبنية الضخمة والآثار الفخمة التي تلتهمها النيران أمامه كان يتمتم قائلاً : « ما أفظع هذه الجريمة وما أقسى قلوب مرتكبيها . انهم لبرابرة »

***

« ثم امتلأ الجو بسحب من دخان الحريق فأصبحنا لا نستنشق سواه عوض الهواء الكروي النقي وارتفع صوت من القصر يقول : — ان القصر ملغوم وعن قريب يطير في الفضاء — وما أسرع ما انتقلت صيحة هذا الانذار من فم الى فم ولما بحثنا عن كنه هذا الخبر وجدناه صحيحاً وكان النهار قد مضى معظمه ودنا منا الليل يهددنا بزيادة الارتباك والويل فدخل على الملك صهره مورات وهو ملك نابولي ومعه البرنس أوجين والبرنس بونياتل وضرعوا اليه أن يسرع ببراح القصر قبل فوات الفرصة ضنّاً بحياته وحياة رجاله وإلا بلغتهم النيران وفعلت الالغام فعلها بأساسات القصر فلم يصغ اليهم ولم يصدق ان القصر ملغوم فعادوا الى تضرعهم وجثوا امامه على ركبهم فأصرّ على عناده وبقي حيث كان

«دخل نابليون قصر الكرملين التاريخي العظيم قصر القياصرة الجبابرة غزاة اوربا وآسيا فعز عليه بعد هذا الفتح ان يترك القصر ويتخلى عن ذلك النصر ولو دعاه الى هذا التخلي الحريق الهائل ورسول الموت الزؤام . وبعد اصرار نابليون على عناده هنيهة من الزمان سمعنا صوتاً من القصر يصيح صيحة ذعر وتحذير : النار ! النار ! النار في الكرملين ! فكان لهذا الانذار دوي عظيم فردده السامعون كثيراً حتى وصل الصوت الى نابليون فتفحص الخبر واذا به حقيقة راهنة لا مرية فيها وبحثنا عن سبب شبوب النار هناك فعثرنا على جندي روسي كان قد اندس في القصر بيننا وهو الذي ابتدأ يضرم النار فيه اطاعة لأمر رؤسائه وقد اعترف الجندي بما اقترف غير هياب ولا وجل فطرده نابليون من أمامه بعد نظرة احتقار واشمئزاز وجهها اليه وما كاد يخرج من حضرته حتى أقبل عليه الحرس الفرنسي ممثلين حنقاً ومزقوه بحرابهم اربا اربا . ولما علم نابليون ان الروس ادخلوا في برنامجهم احراق الكرملين نفسه غير مبالين بما له من قيمة مالية وتاريخية ودينية وان هذا القصر مقضي عليه بعد قليل وان تمكن في المرة الاولى والثانية من اطفاء حريقه وهو في اوائله ولما علم الامبراطور ذلك رأى ان العناد لا يجديه نفعاً فهم بالخروج وأمر بالخروج معهُ من في القصر والمدينة وأشار علينا ان نتخذ طريق بطرسبرج لكي نحتل القصر الامبراطوري هناك. سرنا وبعد الجهد اهتدينا الى طريق ضيق لم يزل كثير من اجزائه سالماً من الحريق ولكن اللهيب فيه شديد فسقفه من نار تتساقط منهُ العوارض الخشبية والملتهبة وطنوب الحديد الحامية وأرضهُ كأنها من نار وعن يمينه ويساره سوران من نار . وهو مع ذلك اقل خطراً من بقية الطرق والمسالك فسلكناه والامبراطور في مقدمنا وكنا نحجب وجوهنا بأيدينا فيصيبها الشواظ ويكويها كيّاً والدخان الكثافة يكاد يعمي عيوننا ونحن لا نستطيع اغماضها لاننا محتاجون الى نظر كل ما أمامنا وحوالينا والاّ هلكنا في طرفة عين ولم يكن لنا بدٌّ من المسير الى الامام على ما يعترضه من الموانع وأما الرجوع فلا سبيل لنا اليه . وأما التربص حيث كنا ولو دقائق يسيرة فمعناه الهلاك العاجل

« وكان البرنس أيكموهل وهو مارشال فرنسي يخوض هو وجنوده بحور النار ويجيزانها في ذلك الحريق الجهنمي مفتشاً عن الامبراطور فلما عثر عليه ونحن معهُ تقدم منهُ وصافحهُ فاستقبلهُ الامبراطور استقبالاً حسناً وديّاً ولكنهُ قال على سمته ووقاره كأنهُ غير مصاب بشيء . فسار معنا المارشال وجنده حتى وصلوا بنا الى طريق آخر أقل خطراً مما كنا فيه ولكنهُ عظيم الشاق لانهُ مؤلف من خرائب وانقاض الابنية التي تدهورت فيه فسلكناه حتى خرجنا من المدينة . وفي السابع عشر من ايلول (سبتمبر) بلغنا بترونسكي بقرب بطرسبرج

وأقنا فيها مؤقتاً . والامبراطور هاد الى صمته وتأملاته فلم نسمع منه هناك الاّ هذه العبارة : « ان ما أصابنا من الحريق يذرنا بويلات عظيمة لا بد ان تحل بنا »

***

هذا هو الفصل الذي اردنا نقله عن الجنرال الفرنسي سيجور Ségur ولكي نقف بالقارىء حيث يحسن السكوت نويحتمل يجدر بنا ان نطلعه بايجاز على الحوادث والنتائج التي ساقها الدهر الى البشر بعد حريق موسكو فنقول :

ذكر المؤرخون ان الجيش الفرنسي الذي زحف به نابليون الاول لمحاربة روسيا واكتساحها هو أعظم جيش قاده في حياته بل أعظم جيش عرفه المحاربون في ذلك العصر فكان عدده ستمائة الف مقاتل ولهذا سماه الفرنسيون الجيش الكبير وان لم يعد الاّ جيشاً متوسطاً في حروب أيامنا الحاضرة . وزعم بعض مؤرخي الروس ان ذلك الجيش الفرنسي كان عدده مليون نفس ولعلهم أضافوا الى رجاله المحاربين وجنوده العاملين كل الرجال الذين رافقوا ذلك الجيش من موظفين وصناع وعمال وتجار وهم جماهير غفيرة لا يستغني عنها الجيش في حله وترحاله لاجل اشغاله وحاجاته ومتعلقاته فبلغ مجموع العدد مليوناً أو ما يقارب المليون . قالوا : وبعد ما حدث حريق موسكو وخرجت الجنود الفرنسية شاردة متبددة لا يكاد يستقر رأيها على أي وجهة تتخذ وأي تدبير تلجأ اليه كانت الجيوش الروسية واقفة لها بالمرصاد ومعها قرتان أخريان لا تقلان عنها هولا وهما الجوع والبرد فان الروس كانوا قد اتخذوا الحيطة والتدابير الدقيقة لحرمان عدوهم المئونة والمؤونة في اثناء تراجعه غير تاركين له في القرى والمدن التي يمر بها شيئاً من ذلك . وأما البرد والثلوج فكانت مبكرة عن جاري عادتها في بلاد الروس تلك السنة كأن الطبيعة قد أخذت على نفسها ان تحالفهم على عدوهم فلحق الفرنسيون من جراء البرد ضيم شديد وعذاب لا يطاق وكذلك من جراء قلة الغذاء وأعظم من الآفتين آفة هجوم الروس ولا سيما خيالتهم القوزاق على تلك الفلول الفرنسية المبعثرة واصطيادها كما يصطاد القناصون الماهرون طيوراً وحيوانات. بقي الجيش الفرنسي يقاسي في نكوصه وتقهقره تلك الويلات مدة شهرين أو اكثر وكل يوم يفقد من رجاله الالوف قتلاً او دنفاً او مرضاً او جوعاً أو تعباً وكان الموتان في الخيول الفرنسية أسرع وأشنع حتى نفقت كلها تقريباً واضطر فرسانها أن يتحولوا كلهم الى مشاة كما اضطرت القيادة الفرنسية ان تترك في اراضي روسيا عتادها ومدافعها وسائر ذخائرها فاستولى الروس عليها غنيمة باردة . ولم يصل الى فرنسا من ذلك الجيش الضخم المظفر في عشرات من الحروب ومئات من المعارك ازاء عدة دول في اوروبا وآسيا الاّ ثلاثون الف

مقاتل أو أقل بينهم جمهور عظيم من المرضى والجرحى . وبذوبان ذلك الجيش ذابت آمال نابليون الاول وآمال اعوانه وأنصاره وأتباعه في اخضاع العالم أو اخضاع القسم الاكبر من العالم . ولم يلبث انكساره ذاك ان نشط بريطانيا العظمى لتجديد الاغارة عليه ومعها مقهورو الامبراطور بالامس من المان ونمسويين وايطاليين واسبان وغيرهم . ولكن عزيمة ذلك الجبار لم تخر بل جهز جيشاً جديداً من قومه وهم فتيان في ريعان شبابهم لا تنكر عليهم بسالتهم الطبيعية ولكن هيهات ان يقوموا مقام ذلك الجيش الهالك الذي كان ممتلئاً حنكةً ودربة فضلاً عن بسالته وبطولته فانكسر الجيش الفرنسي الجديد وأخذ الامبراطور نابليون اسيراً الى جزيرة البا وبعد ما اقام فيها بضعة اشهر تمكن بوسائل جريئة من العودة الى فرنسا وتبوء عرشها وكان له فيها حزب قوي ينصره ومعظمهُ من الجيش وحزب آخر يخذله فعادت دول اوروبا الى محاربته . وقد تمتع مائة يوم بالعرش بعد عودته اليه فكسروه في معركة واترلو الحاسمة سنة ١٨١٥ واحتفظت به بريطانيا العظمى اسيراً في جزيرة القديسة هيلانه من املاكها في جنوب المحيط الاطلسي حيث اقام ست سنوات ثم مرض وتوفي طريداً مقهوراً وهو في اواسط عقد الخمسين من عمره . وبعد وفاته بسنوات نقلت الدولة الفرنسية رفاته من مدفنه الاول الى مدفن عظمائها في باريس حيث استقبلوا الجثة استقبالاً باهراً فخماً يليق بصاحبها

ومما يؤثر عنهُ انهُ كان يثني على بسالة الروس عموماً وخيالتهم القوزاق خصوصاً ومن اقواله بهذا الصدد : « اني احب الروس وان كانوا اعدائي لانهم ابطال والبطل يحب البطل » وقال في مقام آخر : « ان اشجع جيش حاربته هو الجيش الروسي واشجع فرق هذا الجيش خيالة القوزاق ! والفارس القوزاقي لا يكفيك ان تقتله لتأمن شره بل يجب عليك ان تقتله وتدفنهُ » . وبديهي أن في عبارته مبالغة لطيفة اراد بها التعبير عن عناد القوزاق وشدة عزيمتهم حتى وهم على آخر رمق من حياتهم . وكان القيصر الروسي اسكندر الاول بعد ما تغلب نهائيًا هو وحلفاؤه على نابليون حريصاً على أن لا يحرموا فرنسا شيئاً من املاكها الاصلية فتمَّ له ما اراد واكتفى المنتصرون بتجريد فرنسا من فتوحات امبراطورهم وردها الى أصحابها . كما ان هذا القيصر وردت عليه من نابليون وهو منفي في جزيرة القديسة هيلانة رسالة ملؤها شكاوى مرة مما يناله في منفاه من سوء المعاملة في كثير من الامور حتى في التضييق عليه بنزهاته هناك ، متعمدين تعذيبهُ واهانتهُ . فرثى القيصر لحاله وساءتهُ شكواه وتوسط في الامر لدى حليفته بريطانيا العظمى فأصدرت أمرها بالتخفيف عن أسيرها العظيم ورفع كل ما لا ضرورة لهُ من اعنائه والتضييق عليه .